

أم هم تدنو عن مقامها العلي المتين؟ وحقهم ان يتسألوا فانا لله وانا اليه راجعون اهـ

رثيق العظم

﴿ الصيام والتمدن ﴾

٢

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَ تَقُونَ ﴾

ذكرنا في المقالة الاولى من فوائد الصيام صحة البدن بترويضه وصحة النفس بتأديب الشهوة وامتلاء زمامها بحيث يصير الانسان حاكما على شهواته يسيرها في منهاج الادب والشرف الذي يحدده الشرع والنقل لا يحكموا بها كالهمم والدواب . بل الانسان يكون شرا من البهائم اذا هو لم يؤدب شهواته ويملك على نفسه امرها لان باري الكون قد اودع في فطرة البهائم الوتوف عند حدود الاعتدال في تناول شهواتها فلا تأكل ولا تشرب ولا تسافد الا عن داعية الطبيعة ومتى استوفت طبيعتها حقها من ذلك تكف عنه من طبعها ولا تحمّل نفسها بالافراط مالا تطيق ولا تتخذ الوسائل والحيل لاذكاء نار الشهوة فتمتع باكثر مما يقتضيه المزاج المعتدل فيقضي عليها قانون (رد الفعل) بعد ذلك بالاضمف أو الخمود . وخالق الله الانسان ذا فكر يجاهد به الطبيعة ويقاومها تارة بما ينفعه وتارة بما يضره تختلف أحواله في هذا بحسب صحة الفكر وسقمه وسعة المعارف وضيقها . ألم تر ان اكثر ما يصاب الانسان من الامراض والاسقام والادواء التي تنتهي بالموت قبل بلوغ العمر الطبيعي هو من الافراط في الطعام او الشراب او الوقاع الذي يستعين عليه بما يعطيه الفكر من الوسائل والحيل . بالامس احتطفت الميتة شابا في ريعان الصبا وعنفوان الشباب فبقر الاطباء بطنه واستلوا امعاءه فبين لهم انه مات مسموما بالاكثر من علاج تناوله لتقوية الباه - مسلم فعل هذا في شهر الصيام وزمن تأديب الشهوة فانا لله . والبهائم تستوفي آجالها الطبيعية في الغالب متمتعة بالصحة واعتدال المزاج واذا عرض لمرضها المرض أو الموت قبل الاجل الذي خلقها الله تعالى مستعدة لبلوغه فانما يكون ذلك في الغالب لامر خارجي كنفقد الغذاء أو شدة البرد . لهذا كانت سعادة الانسان متوقفة على تربية صحيحة واعليم قويم ولا يوجد هذان على

وجه الكمال الا في الدين والا كان الانسان أشقى في حياته من جميع أنواع الحيوان .
 اقرأ ان شئت قوله تعالى في الجهلاء الذين لا يشكرون الله تعالى باستعمال مواهبه فيما
 خلقت له من التعلم والتبصر والاعتبار (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم
 قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام
 بل هم اضل اولئك هم الغافلون) وقوله تعالى (أرأيت من اتخذ الهه هواه أفانت
 تكون عليه وكيلاً . ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالانعام بل
 هم اضل سبيلاً) صرح القرآن بان الله تعالى خلق هؤلاء السفهاء الاحلام لجهنم وهذا
 من جملة الآيات على ماقناه ولا نزال نقوله من ان غاية الدين الاسلامي سعادة الدارين
 وان الشقاء في الدنيا مؤذن بالشقاء في الآخرة ولكن السعادة في الدنيا ليست آية على
 السعادة في الآخرة لانها تحصل بدون الاخذ بجميع اركان الاسلام وتعالمه على
 الوجه الذي حدده الشريعة

(الفائدة الثالثة) معرفة قيمة النعمة بفقدها ولو اختيارا فان الاشياء تعرف
 بأضدادها فمن لم يهذه الزمان بالحرمان من النعم والحيولة بينه وبين مايشتهي ينبغي له
 ان يمثل هذا الحرمان بالعمل والتكلف لتعظم في عينه النعمة فيحفظها وفي هذا
 الضرب من التهذيب تركية النفس من رذيلة البطر الممقوت صاحبه من جميع البشر
 (الفائدة الرابعة) توطين النفس على الصبر والاحتمال فكم من ذى نعمة فاجأته نعمة
 فبليت باله واذهبت رشده واوقعه الجزع والهلع منها بما هو اشد منها . اعرف رجلا
 من المترفين كان عنده طائر من نوع (الكنار) وكان مولعا به فترك قفصه ذات ليلة بجانب
 بركة الماء فجاءت الهرة تماالج القفص لاصطياده فوقع في الماء ولما اصبح المترف ورأى
 الكنار ميتا في البركة صفق بيديه على ركبته فاصابه من ساعته فيهما مرض عصبي اقعده
 عدة سنين يشتغل بالمعالجة حتى صار يقدر على المشي متوكأ ولم يبل ابلا . يقول قائل
 اتنا نرى هذا الجزع والهلع وقلة الاحتمال من الذين اعتادوا الصيام وربما كان المترف
 الذي تحدث عنه ممن يصوم رمضان . واقول في جوابه ان فوائد الصيام لاتبلغ درجة
 الكمال الا لمن فقه سر الصوم وحكمة الله تعالى فيه المعبر عنها في القرآن بالتقوى اماكم

تتقون) وصام على ذلك فأدرك ما هنالك . والصوم عند المترفين إنما هو تغيير مواقيت الأكل يجعلها في الليل مع زيادة مبالغة في الترف والتطرس والتوق في التعميم . وسائر الناس يحدون حدوا المترفين كل بحسب استطاعته . والصوم الحقيقي هو ما عرفه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله (الصوم نصف الصبر) رواه الترمذي وحسنه وغيره وفي رواية البيهقي زيادة (وعلى كل شيء زكاة وزكاة الجسد الصيام) . وإنما كان الصوم نصف الصبر لأن الصبر إما أن يكون عن الشيء الذي يؤلم النفس ففقدته وإما أن يكون على الشيء الذي يؤلمها وجوده وحصوله . والذي يؤلم فقدته هو الشهوات واللذات . ولما كانت شهوات البطن والفرج أقوى الشهوات والصبر عنهما أصعب واشق على النفس منه على غيرها جمعت الشريعة تركهما والصبر عنهما عزيمة لا بد منها لأن من ربي نفسه عليه فقيها بالمقصود منه طالباً لحكمته وفائدته كان الصبر عن غيرها من سائر الشهوات أسهل عليه وهو ما جمعت الشريعة الصبر عنه من المندوبات المنأكدة في الصوم وقالوا إن كمال الصوم في كف جميع الجوارح عن شهواتها . روى البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال (إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل فإن امرؤ قاتله أو شتمه فليقل أني صائم أني صائم) فجعل الصبر عن مجاوبة الشتم والصائل من الصوم وفي حديث البخاري مرفوعاً (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . ومن العجيب أن الفقهاء لا يحفلون بهذه المباحث بل لا يكادون يذكرونها ويملاؤون الصحائف بالدقائق النادرة التي لا علاقة لها بحكمة مشروعية الصيام كما بحث في الغبار الذي يدخل الاتف في الطريق وفي وضع الحلال في الأذن وفي الاحتراز وقت الاستحشاء من دخول الرطوبة إلى الجوف مع المقعدة ونحو هذا فكيف يحصل فائدة الصوم من يحمل همه في هذه المباحث دون البحث في حكمة هذه العبادة وكيفية إيصالها إلى التتموى المقصودة للشارع منها ؟؟

(الفائدة الخامسة) مساواة الأغنياء للفقراء والمترفين للبايسين في فقد دواعي اللذة وأسباب النعمة . والمساواة من الفضائل المطلوبة في الأمم وهي من غايات الانسانية التي يطمع الحكماء أن تعم البشر بعموم التمدن ويشارك الصوم في هذه الفائدة الصلاة والحج

بل ان الشريعة الاسلامية تساوي بين جميع المحكومين بها في الحقوق سواء من اتخذها دينا ومن كان يدين بغيرها وجملت في عبادتها ألوانا من المساواة لتكون للغي عبرة وتركية وللفقير عزاء وتسليه وتسيه، الامة للمساواة في عامة الشؤون التي يمكن فيها المساواة (الفائدة السادسة) رقة القلب والعطف من ذوي الوجد واليسار على أهل العدم

والاعسار بحيث يحملهم ذلك على مواساتهم والافاضة عليهم مما رزقهم الله تعالى فان من يدوق طعم البلاء يكون على أهله أعطف . وبهم أرف . فن ذاق عرف . ومن المأثور عن سلف الامة الصالح كثرة الصدقات والصلوات في شهر الصوم وقد بقي للخلف من هذه المزية بقية تشكر وان كانت لا تشابه ما كان عليه السلف من كل وجه . ووصف

النبي صلى الله عليه وسلم انه كان في رمضان أجود من الريح المرسلة يحكي انه وقع قحط في عهد أحد الملوك فذكر أمام زوجته ما يقاسيه الفقراء من

البؤس والعناء لقلة القوت فقالت ماضرهم لو استغنوا عن الخبز بالفالودج والوزنج وها أنفس الحلوى المعروقة عند المترفين لذلك العهد وما كان الفقراء يطعمونهما في حال الرخاء (الفائدة السابعة) تعظيم أمر الله تعالى في النفس بآداء هذه العبادة الشريفة على الوجه

الذي شرعه الله ابتغاء مرضاته . وهذه الفائدة روحية محضة ودينية خالصة . والصوم هو العبادة التي لاحظ لشهوة النفس فيها ولا ياتي فيها الرياء لانها ترك لأفضل ولذلك جاء في

الحديث المنفق عليه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال (قال الله عز وجل كل عمل ابن آدم له الا الصيام فانه لي وأنا أجزي به) وفي رواية (كل عمل ابن آدم تضاعف له الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الا الصوم فانه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي)

ربما يفهم بعض الناس من الحديث ان الصوم من الامور التعبدية التي لا يعقل لها معنى ولا تعرف لها فائدة للانسان في حياته الا محض الامثال لأمر الله ابتغاء ثوابه ورضوانه في الآخرة ونحن نقول انه ما من عبادة معقولة المعنى ظاهرة الفائدة للمعامل بها الا وفيها معنى

تعبدية يجب ان يتحراه الانسان ويحافظ عليه لمجرد الامثال . وأضرب لهذا مثل الصلاة فان فائدتها للمصابين من الهي عن النحشاء والمنكر والتطهير من الجزع والهلع والبخل والتحلي باضدادها معقولة المعنى فان من يقيم الصلاة على الوجه الذي اراده الله تعالى من الخشوع وحضور القلب واشعاره عظمة الله وكبير سلطانه تحصل له ملكة مراقبة الله تعالى

عند كل عمل وتذكر هيمته واحاطة علمه بما يعمله فيكون هذا زاجرا له عن الفواحش
 والتكرات ونازعا من قلبه الهلع والجزع عند حدوث الخطوب وباسط يديه بالاتفاق
 والبذل مما يمس من الخير في وجوه البر والخير . ولكن تحديد ركعات الصلاة بما هي
 عليه ككون الصبح ركعتين والمغرب ثلاثا والباقيات اربعا اربعا ليس معقول المعنى وانما
 محافظا عليه للوجه الديني الخالص والاتباع المحض ونعلم ان لله فيه حكما لا يتوقف انتفاعنا
 بالعبادة على معرفتها كما اذا عرفنا الملاج وقائده في شفاء المرض ولم نعرف الحكمة
 في مقادير اجزائه ونسبة بعضها الى بعض وكون الذي يتناول يجب ان يكون مقداره كذا
 ووقته كذا ولو لم يكن هذا المعنى التعبدى في هذه الاعمال النافعة المقومة للسعادة الدنيوية
 لم تكن عبادة تسعد فاعلها في الآخرة ولكن العقلاء يعملونها لفائدتها من غير تقيّد
 بما حدّه الدين فتبطل منها فائدة المساواة بين افراد الامة والمساواة في العمل من
 الكلمات الاجتماعية كما علمت . فبما تقوم يرغبون عن هذه العبادات وما فيها من الفوائد
 والمنافع (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه)

(الفائدة الثامنة) صفاء القلب واستتارة الروح واستعدادها بذلك لتفجحات الله
 المنوية فقد ورد (ان لربكم في ايام دهركم تفجحات الا فتعرضوا لتفجحات ربكم)
 ولادراك شيء من عالم الملكوت في ليلة القدر فقد قال الامام الغزالي انها عبارة عن
 ليلة ينكشف فيها شيء من الملكوت لذى الاستعداد وهذه الفائدة للخواص ويحتاج
 بيانها الى شرح طويل لا محمل له الآن وكل منا يعلم من نفسه ان قلة الشواغل والبعد
 عن الشهوات والرياضة المتدلة تعطى صاحبها قوة في عقله وادراكه فاذا كان مستعدا
 بفطرته لادراك شيء مما وراء الحس فاي مانع من كون الصيام معينا عليه ؟
 هذا مانع لنا من فوائد الصيام وكونه من أسباب السعادة في الدنيا ومقومات المدينة
 كما هو من أسباب السعادة في الآخرة فعلى التمدن العاقل ان يعتبر به ويصوم مراعي
 هذه الفوائد ومتحريا لها وعلى الصائم الذي لا يعرف من الصيام الا ترك الاكل والشرب
 والجماع ان يطالب نفسه بسر الصيام وفوائده وحكمته لئلا يتناوله حديث (كم من
 صائم ليس له من صومه الا الجوع والعطش) رواه النسائي وابن ماجه . وليكون الصوم
 له جنة ووقاية كما في الحديث الذي تقدم (وما يتذكر الا اولوا الالباب)